الفصل الخامس

الموقع المعرفى لتاريخ التربية

مقـــــدمـــــة :

الأنساق المعرفية المختلفة مثلها مثل أبناء البشر، فإذا كان لكل إنسان ذاتيته المتميزة التى تجعل منه هو هو ، بل وتساعدنا المعرفة بها على توقع ردود فعلها على هذا الفعل أو ذاك بقدر من الثقة ، فكذلك أنساق المعرفة ، لكل منها شخصيته المتفردة التى جعلت منها كيانا قائما بذاته ، له موضوعه وله منهجه ، وله علماؤه وباحثوه ، ومصادره ومراجعه .وإذا استخدمنا نفس التشبيه وقلنا أنه كما أن كل إنسان ، على الرغم من تفرده لا يستطيع أن يعيش منفردا ، وهذه حقيقة نبه عليها منذ زمن طويل فيلسوف اليونان الشهير أرسطو ، وعبقرى المسلمين ، ابن خلدون ، فكذلك الأنساق المعرفة ، كل منها له أنساق أخرى يغذيها ويدعمها ، ويعتمد هو كذلك على علوم أخرى ، من أجل هذا نسعى من خلال الفصل الحالى أن نرسم معالم خريطة لعدد من العلوم ذات الصلة بتاريخ التربية ، كى نبين ، كيف ، وإلى أى حد يستطيع هو أن يفيد بعضا منها ، وكيف ، وعلى أى وجه لابد أن يعتمد كذلك بدوره على بعض آخر .

أولا ـ علاقة تاريخ التربية ببعض العلوم التربوية الأخرى :

ترى : ما علاقة الدراسات التاريخية فى التربية ببعض العلوم والدراسات التربوية الأخرى ؟ وما الدور الذى يمكن أن تؤديه بالنسبة لها ؟

من الناحية اللائحية فإن دراسة التاريخ التربوى تقع فى نطاق قسم أصول التربية فى جميع كليات التربية بمصر ، (وبعض الدول العربية الأخرى) ، باستثناء كلية التربية

بجامعة الأزهر ، حيث تقع ضمن اختصاصات قسم الإدارة والتخطيط التربوى ، ولا ندرى – حقيقة – ما العلاقة بين " الإدارة التربوية " و" التخطيط التربوى " وبين تاريخ التربية ؟ وربما قد يفسر هذا أن نفس القسم يضم " التربية المقارنة " ، اعتمادا على وجهة نظر يدعو لها بعض الزملاء المتخصصين فى التربية المقارنة ، حيث يرون أن الدراسة التاريخية للتربية قرينة الدراسة المقارنة وهى أقرب إليها منها إلى أصول التربية .

ولسنا هنا فى مجال مناقشة هذه القضية تفصيلا ، إذ ربما تتحول المناقشة إلى دروب أخرى لا نود الدخول إليها ، إذ أبسط ما يقال عن معيار " المناسبة " أو " الملاءمة " أن نطرح تساؤلا مؤداه : وهل هناك علاقة بين " الإدارة التربوية " و" التربية المقارنة ؟ وإنما ينبغى علينا أن نفرق بين جانبين : أولهما : التاريخ التربوى كنسق معرفى قائم بذاته ، وثانيهما : التاريخ التربوى كمدخل أو كنهج يعين على دراسة موضوعات تربوية ، فهو ، كنسق معرفى قائم بذاته ، له بطيعة الحال علاقة قربى واتصال وتبادل التأثير والتأثر بمختلف الدراسات التربوية ، ويأتى على رأسها بطبيعة الحال : أصول التربية وفلسفتها واجتماعياتها ، مما سوف نبينه تفصيلا فيما بعد .

والتأريخ ، مدخلا ، ونهجا ، هو " أداة " تستخدم فى مختلف الدراسات التربوية ، مما سنبينه كذلك بعد قليل ، فإذا كان من المفضل أن يبدأ البحث التربوى ، عموما ، وأيا كان مجال التخصص ، بتقديم " إطلالة " تاريخية ، على سبيل التمهيد والمقدمات ، فلا يعنى هذا أن يصبح تاريخ التربية مجال تنازع بين التخصصات التربوية جميعا كل منها تزعم أنه جزء من كيانها ، وهكذا الشأن بالنسبة للتربية المقارنة ، إذ لا يستطيع إنسان أن ينكر أن دراسة أى نظام للتعليم فى بلد ما أو أية مشكلة من المشكلات التعليمية ، يمكن أن تتم دون الاستعانة بدراسة الأوضاع الماضية ، لكننا هنا نكون إزاء عملية " تأريخ " لا ينبغى أن تتجاوز دورها " كمدخل " أو " منهج " .

لقد كانت التربية المقارنة ، حتى نهاية الخمسينات ، تسير على أساس المنهج التاريخى الذى وضعه " كاندل Kandel " وسار عليه كل من تأثر به من رواد التربية

المقارنة من أمثال " هانز Hans " و " شنيدر Schneider " و " مالينسون Mallinson " ، وهو المنهج القائم أساسا على وصف النظام التعليمى أو جانب من جوانبه ، ومحاولة تفسيره فى ضوء التراث التاريخى للمجتمع ، وكذلك المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية السائدة فيه ، حيث تتفاعل هذه المتغيرات فيما بينها وتنعكس انعكاسا واضحا على نظام التعليم ، كما تنعكس على الحلول التى تأخذ بها مجتمعات معينة فى مواجهة مشكلاتها التربوية (١) .

إن كثيرا من باحثى التربية ، فى مجالاتها المختلفة ، يجدون لزاما عليهم ، أحيانا ، استخدام المنهج المقارن ، للمقارنة - مثلا - بين منهج دراسى يقوم على النشاط ومنهج دراسى آخر يقوم على المادة الدراسية ، طريقة تدريس فى القراءة تقوم على " الكلية " ، وطريقة تدريس أخرى تقوم على " الجزئية " بتفصيل الحروف وتعلمها أولا ، اتجاه فى علم النفس مثل التحليل النفسى ، واتجاه آخر مثل الاتجاه السلوكى ، نظرية فى التعلم مثل نظرية " بافلوف " ، ونظرية أخرى مثل نظرية " هل " ، وفى فلسفة التربية يمكن أن نقارن بين فلسفة التربية الماركسية وفلسفة التربية البراجماتية ، لكن استخدام المنهج المقارن هنا لا يعنى أن يتخصص كل هؤلاء فى " التربية المقارنة " كنسق معرفى قائم بذاته ، له علماؤه وأساتذته وخبراؤه ، وباحثوه . وهكذا ، نفس الشىء ، على وجه التقريب ، يقال عن باحثى التربية المقارنة عندما يستخدمون المنهج التاريخى حيث لا ينبغى أن يعنى ذلك ، التحول إلى التخصص فى التاريخ التربوى كنسق معرفى قائم بذاته .

بل إن هناك علماء أفذاذ فى التربية المقارنة هاجموا استخدام المنهج التاريخى فى دراستها ، يقف على رأس هؤلاء " براين هولمز B.Holmes " حيث أتيحت لنا فرصة الحوار الشخصى المباشر معه أكثر من مرة فى معهد التربية بجامعة لندن فى ربيع ١٩٨٢، وأثبت رأيه هذا فى كتابه المعروف عن مدخل المشكلات فى دراسة التربية المقارنة Problems in Education . A Comparative Approach " ، فقد وجه هولمز النقد للمنهج التاريخى فى دراسة التربية المقارنة ، حيث ينصب الاهتمام على وصف النظم التعليمية وتفسيرها فى ضوء العوامل والقوى السائدة فى المجتمع والتى أثرت فى هذه النظم ، دون أن تهتم بالتنبوء الذى يمكن أن

يجعل من التربية المقارنة أداة للتخطيط التربوى والإصلاح التعليمى ، فقد انتقل مركز الاهتمام من الماضى والحاضر إلى المستقبل ، فبدلا من الاهتمام بوصف وتفسير المشكلات التربوية والبحث عن العوامل فى الماضى والحاضر التى سببت هذه المشكلات ، اتجه الاهتمام للبحث عن أنسب الحلول من خلال بدائل السياسات التربوية التى تنتجها دراسة التربية المقارنة (٢) ٠

وإذا كان التاريخ التربوى نعتبره عضوا فى عائلة أصول التربية ، إلا أننا يجب أن نعترف بأن هناك بعضا من الباحثين " يميعون " الحدود بين التاريخ التربوى وكل من " الأصول الفلسفية للتربية " ، و " فلسفة التربية " ، وينشأ التداخل الذى يربك القارىء ، فضلا عن الباحث ٠ وهؤلاء لهم عذر بطبيعة الحال ، لأننا ينبغى أن نعترف بأن الحدود بين العلوم التربوية ، هى فى بعض الأحيان ما تكون كالحدود السياسية ، معظمها لا وجود له على الطبيعة ، لكن لابد مما ليس منه بد حتى تتحدد البحوث وتكتسب ما هو مفترض فيها من العمق ٠

إن الأصول الفلسفية عند كثيرين تعنى البحث عن أثر الفلسفات المتعددة على الفكر والتطبيق التربوى ، ومن هنا يبحثون فى فلسفة أفلاطون وأرسطو ولوك ، وغير هذا وذاك من عمالقة الفكر الفلسفى ٠ بيد أن هذا العمل نفسه هو عمل أساسى يقع فى نطاق مهمة مؤرخ الفكر التربوى ٠ ومن هنا فإننا ننصح باحثى الأصول الفلسفية بأن يقتصروا على الفلسفات المعاصرة ، كالماركسية ، سواء الكلاسيكية أو الجديدة ، والبراجماتية ، والبنائية ، والتحليلية ، والوجودية ، وغير هذه وتلك من الفلسفات الكبرى ، من أجل بيان ما أدت إليه هذه الفلسفات من آثار على حركة الفكر والتطبيق التربوى ٠

ونفس الشىء ، إلى حد كبير ، يحدث بالنسبة لفلسفة التربية ، فهى - من وجهة نظرنا - الدراسة التحليلية الاجتماعية الفلسفية للمفاهيم والمشكلات والنظريات التربوية ، لكن البعض ، نجده عندما يعرض لمفهوم مثل " الطبيعة الإنسانية " ، يعود إلى ما قاله مفكرو التربية منذ عصور قديمة ، ربما تصل إلى قدماء اليونان ومن تلاهم ، فهذا أيضا مما يدخل فى مهام التأريخ للتربية ، وبالتالى فإن مهمة فلسفة التربية ،

هى دراسة المفاهيم والمشكلات والنظريات التربوية المعاصرة ، تاركة لتاريخ التربية أن يوضح الجذور والتطور الماضى . ولو التزم باحثو فلسفة التربية بذلك لربما قللوا من الاهتمام بمناقشة مفهوم مثل الطبيعة الإنسانية ، فهذا المفهوم ، إذا كان قد مثل موضع اهتمام من فلاسفة التربية أمس ، فهو لا يمثل نفس الأهمية اليوم ، لأن الدراسات النفسية ، قد وسعت من بحوثها ودراساتها بحيث لم يعد هناك مجال لفلاسفة التربية أن يتناولوه ، هو موضوع يقع فى تاريخ التربية ، لكنه لم يعد ملائما لأن يكون موضوعا لفلسفة التربية ، بالمعنى الذى أشرنا إليه .

وقياسا على هذا ، نطبق نفس الحكم على باقى دراسات أصول التربية . فدراسة اقتصاديات التعليم ، إذ تنصب على الجوانب الاقتصادية للظواهرالتربوية ، والجوانب التربوية للظواهر الاقتصادية ، فإن لهذه العلاقة بالضرورة " تاريخ " لابد أن يعرف ويدرس ، وهناك بالفعل من درس قضية " تطور العلاقة بين الاقتصاد والتعليم " ، فمثل هذه الدراسة ، هل تعد موضوعا من اقتصاديات التعليم أم موضوعا من موضوعات تاريخ التربية ؟ من وجهة النظر التى نؤكدها هى من موضوعات تاريخ التربية ، اعتمادا على أن اقتصاديات التعليم مفروض أن يتجه إلى الحاضر والمستقبل ، تاركا " ماضى " الظاهرة للدراسة التاريخية .

وقل مثل هذا على الدراسات الأصولية لتعليم الكبار ، ومحو الأمية ، واجتماعيات التربية . إن هذه التفرقة التى نقترحها أشبه بتلك التفرقة بين التاريخ السياسى والسياسة ، فالتاريخ السياسى هو سياسة الأمس ، والسياسة هى تاريخ اليوم ، أفليس لنا ، قياسا على هذا أن نقول بأن تاريخ التربية هو أصول تربية الأمس ، بكل فروعها الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية .. الخ ، وأن أصول التربية ، عملية تأريخ لتربية اليوم ؟!

فإذا جئنا لمجال المناهج وطرق التدريس ، نجد أن ما أقيم من حواجز بين الأنساق التربوية ، قد أدخل قطاعا هاما من قطاعات التأريخ إلى دائرة التعتيم والتجاهل ، هذا القطاع هو القطاع الخاص بتطور المناهج الدراسية المختلفة . لقد نقل عن البعض أن المتخصصين فى مناهج التعليم هم " أسطوات " تربويون ، إشارة إلى أن عنايتهم

الأساسية تتجه إلى بناء مناهج كى يتعلمها الطلاب الحاضرون أو الذين سوف يأتون فيما بعد ، وتطوير هذه المناهج . لكننا نؤكد أن هذا التشبيه إذا كان صحيحا ، إلا أنه لا ينفى بطبيعة الحال أن المسألة ليست " فنية " بحتة ، فهى " علم " أولا ، وبالتالى فإذا كان اهتمام باحثى المناهج ينصب على حاضرها ومستقبلها ، فلابد أن تكون هناك دراسات عن ماضيها وتطورها ، ومثل هذا القطاع من الدراسات يفضل أن يكون مشتركا بين باحثى تاريخ التربية والمناهج بالنسبة لبعض الموضوعات .

وما يحدث فى مجال المناهج وطرق التدريس ، له شبيه فى الدراسات النفسية ، فالنزعة " العملية " التى ترى أن الجهد ينبغى أن يتصدى لحاضر الظاهرة ومستقبلها ، قد أدى إلى غياب هذا النوع من الدراسات التى تسعى إلى الكشف عن تطور البحث فى ظاهرة ما من الدراسات النفسية ، وإن كان الأمر ربما لا يخلو ، فى كثير من الدراسات ، من إعطاء " نبذة " تاريخية ، فإذا كان الموضوع خاصا بالاختبارات والمقاييس النفسية ، فغالبا ما يسعى الباحث إلى إعطاء القارىء صورة موجزة عن الجهود السابقة التى من خلال تطورها ، وصلت الاختبارات والمقاييس إلى ما وصلت إليه فى وقتنا الحالى من تقدم .

ثانيا – ضرورته للعلوم الأخرى :

وإذا كان موضوع التاريخ هو " الماضى " ، فليس معنى ذلك أن العلوم الأخرى تهمل هذا الماضى كلية لتتجه إلى " الحاضر " ، فللقانون تاريخه ، وكذلك للفن ، وللأدب وللفلسفة وللإجتماع ، بل للطب وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، فهناك دراسات عن تاريخ الكيمياء ، وتاريخ الفيزياء ، وتاريخ الرياضيات ، وكذلك العلوم التطبيقية ، فنجد هناك دراسات باسم تاريخ العمارة ، على سبيل المثال ، وتاريخ بعض الصناعات . وهناك المرجع الضخم الشهير لجورج سارتون (تاريخ العلم) ، ولنفس المؤلف مرجع ضخم أيضا باسم (تطور الفكر السياسى) . ولعلنا نلاحظ أن هناك بعض القطاعات المعرفية التى تجعل " تاريخها " هو موضوعها الأساسى ، كما يرى البعض من المتخصصين فى دراسة الفلسفة ، ويستند هؤلاء فى ذلك إلى أن كثيرا من موضوعات الفلسفة وقضاياها ما زال مثار تفكير وموضوع بحث . وكذلك الأمر بالنسبة للأدب

وتاريخه ، فهو عادة ما يدرس فى صورة " حقب " تاريخية ، فنجد هناك " الأدب الجاهلى " و" الأدب فى العصر العباسى " و" الأدب فى عصر المماليك " ، وهكذا ، ونفس الشىء فى دراسة الأدب الغربى ، بل وكل أدب من آداب العالم .

بل نحن نذهب إلى ما هو أبعد من هذا ، عندما نؤكد أن كل عالم ، أو أديب ، أو فنان ، ، لا غنى له فى علمه أو فنه من أخذ الماضى بعين الاعتبار والتأثر به إلى حد قريب أو بعيد (٣) ، فالطبيب حين يعالج الداء ، يبدأ أول ما يبدأ بالسؤال عن نشوئه وتطوره ، وعما اعترى المريض من علل سابقة . والفلكى الذى يتتبع تكون العالم والأجرام السماوية ودوران الكواكب فى أفلاكها ، لابد له من أن ينظر إليها فى تحولها عما كانت عليه إلى ما هى الآن ، وإلى ما ينتظر أن تكون . والكيميائى ، إذ يخضع مادة من المواد لعملية بعينها ، يدرس تغيرها من حال إلى حال ، من " ماض " إلى " حاضر " ، أو من " حاضر " إلى " مستقبل " . والعالم الاجتماعى – أيا كان تخصصه ، لا يستطيع دراسة المشكلات التى يعالجها ، إذا لم يأخذ بعين الاعتبار ، الجذور التى نبتت منها والتبدلات التى طرأت عليها . وهكذا الأمر فى العلوم الأخرى ، الطبيعية منها والبشرية ، فكلها تهتم بماضى الحقائق المتعلقة بموضوعها ، وتنظر إليها ك" أحداث " ، وإن كان هذا النظر والاهتمام على درجات متفاوتة وبأشكال مختلفة ، حسب طبيعة كل منها .

أما الأديب والفنان ، فهل بإمكان أى منهما ، إذ ينتج ، أن ينعزل عن خبراته السابقة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذى نشأ فيه والتقاليد السائدة فى محيطه وعصره ؟ ذلك أمر مستحيل ما دام الإنسان ، أى إنسان ، وليد أحداث وملتقى عوامل متطورة مطورة تعمل فى نفسه وفى مجتمعه . ومن الأمثلة المبرهنة على ذلك ، من يقرأ ثلاثية نجيب محفوظ ، سوف يجد مساحة واسعة لأحداث التاريخ المصرى فى فترة ثورة ١٩١٩ بصفة خاصة ، وهالة واضحة تحيط بشخصية سعد زغلول ، لأن المؤلف نفسه ، شهد هذا وهو صبى صغير وحفرت فى وجدانه ، حتى إذا بدأ يبدع أدبا روائيا ، أطلت هذه الوقائع والأحداث برأسها . وعندما ينظر الإنسان إلى تمثال نهضة مصر للفنان محمود مختار ، يستطيع أن يشعر بالفعل بالكثير من المقومات الأساسية

لمصر ، وكيف أن هذا التمثال كان أحد ثمرات تلك النهضة الكبرى التى ولدتها الثورة الشعبية فى ١٩١٩

فالتاريخ إذن هو من هذا الوجه ، منساب فى شتى العلوم والآداب ، مرتبط بها متفاعل وإياها ، ولكنه يتميز عنها من حيث انصبابه على الماضى بالذات ، بينما تتجه هى إلى أغراض وغايات أخرى (٤) ٠

إن الهم الأول للأديب أو الفنان هو روعة إنتاجه المستمد من عمق خبرته ومن مقدرته على رؤية الجمال والتعبير عنه ، هذه الروعة هى مثله الأعلى ، ومقاييسها هى المقاييس التى يخضع لها ، والتى على أساسها يحكم له أو عليه ٠ أما تحديد منشأ هذه الروعة والمنابع التى صورت منها ، فهو من وظيفة العالم النفسى أو المؤرخ الفكرى أو الاجتماعى ٠ وللتأريخ منها نصيب واف فى الحالة الأولى ، والنصيب كله فى الحالتين الأخريين ٠ ومن هنا كان لازما فى إنتاجنا الأدبى ومناهجنا التربوية أن نميز تمييزا دقيقا بين الأدب وتأريخه ، إذ أن التباس أحدهما بالآخر يقوى الارتباك بينهما ، وإلى ضعف الإنتاج واضطرابه فى كل منهما ٠

وإذا كان هذا مما يتصل بضرورة التأريخ للعلوم المختلفة ، لكن ، بماذا تفيد دراسة تاريخ العلوم الأخرى باحث التاريخ التربوى ؟ هذا هو موضوع الجزء التالى ، لكننا نود هنا أن نشير إلى مثال من بعض هذه العلوم مما سوف قد يأتى ذكره ، فنحن أثناء تأريخنا للتربية والتعليم فى مصر فى العصور القديمة ، إذ وجدنا شحا فيما يتصل بالتعليم مباشرة ، وقلبنا صفحات فى تاريخ الفنون المصرية القديم ، وكذلك الطب والصيدلة ، وجدنا مادة ثرية تكسب هذا التأريخ أبعاد حضارية متعددة الجوانب ، مختلفة الأشكال ٠

ثالثا – العلوم المساعدة للتأريخ :

أشرنا أكثر من مرة إلى أن أنواع المعرفة ، إذ تتداخل وتتشابك فيما بينها ، لا يمكن أن يدرس علم معين مستقلا بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم أو المعارف ،

فمثلا ، لا يستطيع الدارس أن يفهم القرآن الكريم حق الفهم ، بحيث يستطيع أن يشارك فى جهود تفسيره ، دون أن يحسن معرفة اللغة العربية ، وعلوم القراءات ، والفقه ، والحديث النبوى الشريف ، والتصوف ، والأدب العربى والتاريخ والجغرافيا الخاصين بالعالم العربى بصفة خاصة ٠ وكلما زادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه واستيعابه لمعانى القرآن الكريم ٠

والدارسون " لأصول التربية " بصفة خاصة يعلمون علم اليقين أن هذا المجال - بطبيعته وبتحليل اسمه - إنما يقوم على دراسات فى السياسة والاقتصاد ، وكذلك التاريخ وعلم الاجتماع وعلوم الدين والأنثروبولوجى وعلم النفس ٠

وإذا كان تاريخ التربية فرعا من فروع أصول التربية ، فهذا الحكم ينطبق عليه كذلك ، لكنه ، من ناحية أخرى ، ينفرد باحتياجه الأساسى إلى عدد آخر من فروع المعرفة الإنسانية ، التى ربما لا يحتاج إليها هذا الباحث أو ذاك من باحثى فروع أصول التربية الأخرى ٠ فمن الضرورى لمؤرخ التربية أن يكون واسع الثقافة ، عارفا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته ٠ ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة لمؤرخ التربية أو لغيره من الباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم ، بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصلة ، كما اصطلح على تسميتها لدى الجمهرة الكبرى من الباحثين ٠ ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتتقارب بالنسبة لدارس تاريخ التربية باختلاف العصر أو الناحية التى يرغب فى دراستها والكتابة عنها ، فالعلوم المساعدة اللازمة لدراسة تاريخ التربية فى عصر النبوة ، تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لدراسة تاريخ التربية الأوربية فى العصور الوسطى ، أو تاريخ التعليم فى عهد الدولة العثمانية (٥)٠

إن عملية التأريخ - كما سنبين تفصيلا فيما بعد - تتركز بالدرجة الأساسية على عملية " نقد " متعددة المستويات يصعب القيام بها دون مستوى أدنى من العلم ببعض التخصصات ذات الصلة ، وتوضيحا لذلك نشير إلى أن عملية التأريخ التربوى ، إذ تبدأ بجمع الوثائق المفيدة المتصلة بموضوع البحث ، فإن الأمر بين إحدى خصلتين : فإما أن تكون هذه الوثائق قد خضعت لتمحيص نقدى ، وإما أن تكون على حالها ، وعلم هذا يكون بأبحاث " مرجعية " تكون جزءا من التحقيق الممهد لكل عملية منطقية ، وفى

الحالة الأولى (أى التى تكون الوثائق فيها قد خضعت للتمحيص) يجب أن نكون قادرين على التحقق مما إذا كان النقد قد تم على الوجه السليم . وفى الحالة الثانية (أى التى تكون المواد فيها على حالها) يجب أن نقوم نحن بأنفسنا بالنقد . وفى كلتا الحالتين ، لا غنى عن بعض المعارف الإيجابية السابقة ، والمساعدة ، التى ، كما يقال ، لها من الأهمية ما لمهارة التفكير السليم ، إذ لو أخطأنا أثناء العمليات النقدية بإساءة التفكير ، فإن من الممكن كذلك أن نخطىء بسبب الجهل . ومهنة العالم المحصل أو المؤرخ تشبه فى هذا معظم المهن ، فمن المستحيل ممارستها دون أن تكون لدى المرء بضاعة خاصة من المعلومات الفنية لا تغنى عنها المواهب الفطرية ولا المنهج (٦).

وعلى سبيل المثال فالعلماء المختصون بأوراق البردى يمدون مؤرخ التربية القديمة بما لديهم من نصوص كتبت سواء بلغة هيروغليفية أو هيراطيقية أو ديموطيقية أو يونانية ، وعلماء الأنساب يبرهنون على صحة تسلسل النسب ، ويقدمون الجداول الخاصة بذلك ليستفيد منها المؤرخ . والمفهرسون فى دور الكتب يمدون المؤرخ بالمعلومات اللازمة عن الكتب والمؤلفين عن طريق الفهارس والكتالوجات لمساعدته فى إعداد دراساته ، والمختصون بالعلوم الاجتماعية والنفسية الذين يقومون بعمل الإحصاءات عن تعداد السكان ، والتطور الاجتماعى ، الأمر الذى لا غنى عنه لمؤرخ التربية (٧) .

ومن الأمثلة كذلك ، علم " حساب التواريخ " ، وهو العلم الذى يسهل للمؤرخ مسألة هامة وهى مسألة قياس ومقارنة الزمن وضبطه (٨) ، فعالم حساب التواريخ يشرح التقاويم والتواريخ العديدة التى كانت مستعملة - أو لا تزال - ويجعل بمقدورنا أن نحول التواريخ من تقويم إلى آخر ، وهذا أمر على غاية كبرى من الأهمية بالنسبة للمؤرخين ، فقد تواجه الكثيرين منهم بعض التواريخ الهجرية أو العبرية أو القبطية ، ويحرصون على معرفة تعادله فى التاريخ الميلادى مثلا ، فكتب ومصنفات التقاويم تحل هذه المشكلة ، وتعرف المؤرخ أن هذا التاريخ الهجرى يعادله ذلك التاريخ الميلادى ، أو العكس ، وهكذا . ومصنفات التقاويم الأجنبية والعربية موجودة فى المكتبات العامة ويمكن الاستعانة بها لدى الدارسين والباحثين والطلاب . وفى الفترات الأخيرة أمكن ترتيب هذه التقاويم اعتمادا على الكومبيوتر . ومن المعروف مثلا أن الدولة العثمانية

اتبعت فى بعض فتراتها التاريخية التواريخ الهجرية والشمسية والميلادية ، وكذلك كان لها سنة مالية تختلف عن السنة الميلادية المعروفة ، ويصبح من واجب الدارس لتاريخ التربية فى العهد العثمانى أن يقارن بين هذه التواريخ المختلفة (٩) .

ومن هنا يبرز السؤال : من أى الأشياء إذن يجب أن تتكون التنشئة الفنية للعالم المحصل أو المؤرخ ؟ ، وبعبارة ربما تكون أكثر صراحة ووضوحا : ما هى العلوم المساعدة للتأريخ ؟

لقد تساءل " دونو Daunau " فى كتابه (محاضرات فى الدراسات التاريخية) على نحو مشابه ، فقال : " ما هى الدراسات التى سيحتاج إليها من يكرس نفسه لكتابة التاريخ ؟ وما هى المعارف التى لابد له أن يكون قد حصلها كيما يبدأ وهو آمل فى النجاح ؟ ومن قبله اعترف " مابلى Mably " فى كتابه (مبحث فى دراسة التاريخ) : " بأن هناك دراسات تحضيرية لا يمكن للمؤرخ أيا كان شأنه أن يستغنى عنها " (١٠).

وقبل أن نسوق أمثلة مفصلة بعض الشىء للعلوم المساعدة ، من الضرورى إثبات عدد من الملاحظات نرى ضرورة أخذها بعين الاعتبار :

أولا – أن جميع العلوم التى تسمى علوم مساعدة ليست " علوما " بالمعنى الدقيق ، فعلم الشهادات المكتوبة ، ومصنفات التقاويم ، والتاريخ الأدبى ليست غير كشافات منهجية بالوقائع التى حصلها النقد ، والتى من طبعها أن تسهل نقد الوثائق التى لم تنقد بعد ، وعلى العكس من ذلك ، نجد علم الجغرافيا علم منظم وله قواعده وقوانينه (١١) .

ثانيا – يجب التمييز فى داخل المعارف المساعدة لا للتاريخ التربوى بالمعنى الصحيح بل للأبحاث التاريخية ، بين المعارف التى ينبغى على كل باحث أن يحصلها ، ومن تلك التى يحتاج إلى معرفة أين توجد فقط ليرجع إليها عند الحاجة ، بين تلك التى يجب أن تصبح " مهارة " راسخة فيه ، وتلك التى تبقى على هيئة معلومات يتزود بها كلما أراد ، فالباحث فى التربية الغربية فى العصر الوسيط يجب عليه أن يعرف قراءة وفهم

نصوص من العصور الوسطى ، ولن يفيده شيئا أن يكرس فى ذاكرته معظم الوقائع الخاصة بالتاريخ الأدبى وبعلم الشهادات الكتابية المسجلة فى مكانها ضمن المتون الكشافة للتاريخ الأدبى ولعلم الشهادات الكتابية (١٢) .

ثالثا - لا توجد معارف مساعدة للتاريخ التربوى (وللأبحاث التاريخية) بوجه عام ، أى تفيد كل الباحثين على السواء أيا كان الجزء من التاريخ الذى يتناوله بالدرس ، ولهذا لا يبدو أنه هناك جواب عام عن السؤال السابق طرحه ، وهو مم يجب أن يتألف الإعداد الفنى للعالم المحصل أو المؤرخ التربوى ؟ فهذا يتوقف على : الجزء من تاريخ التربية الذى يطمح إلى دراسته ، فلا فائدة من معرفة اللغة التركية لمن يريد دراسة تاريخ التعليم فى مصر فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، لكنها ضرورية لمن يدرس العهد العثمانى أو فترة حكم محمد على وخلفاؤه ، حتى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ، ولابد ، بطبيعة الحال ، لمن يدرس التربية فى الحضارة اليونانية أن يعرف اليونانية ، لكنها ليست ضرورية لمن يدرس التربية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن الثامن عشر . . وهكذا .

ومن هنا فعلينا أن نقول أن " التنشئة الأولية " لكل من يريد القيام بأبحاث أصيلة فى التاريخ يجب أن تتكون من (إلى جانب " التعليم المشترك " ، أى الثقافة العامة التى يتحدث عنها " دونو ") جميع المعارف الكفيلة بتزويده بوسائل الكشف عن الوثائق وفهمها ونقدها ، وهذه المعارف تختلف تبعا لناحية التخصص فى هذا القسم أو ذاك من أقسام تاريخ التربية . ومن الملاحظ أن الإعداد الفنى بالنسبة لمن يبحث فى التعليم الحديث والمعاصر ، يكون قصير المدة الزمنية ، وسهلا إذا قيس بمثيله عندما يريد الباحث أن يدرس قضية تتصل بالتاريخ القديم ، أو حتى العصور الوسطى (١٣) .

ونستطع الآن بعد هذه الملاحظات أن نشير إلى أهم العلوم التى ينبغى على الباحث فى التاريخ التربوى أن يقف على ما يتصل بموضوع بحثه منها :

١ - **اللغات** : فمعرفتها من أهم الخطوات على طريق التأريخ العلمى الدقيق لتطور التربية فى مجتمع من المجتمعات ، إذ لابد من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع

التاريخى المراد بحثه والكتابة عنه كما سبق أن أكدنا ، فإذا كان الموضوع هو التربية فى مصر فى العهد القبطى ، مثلا ، يصبح من الضرورى على الباحث أن يكون عارفا باللغة أو اللغات التى كانت سائدة ، فهى التى دونت بها سائر الوثائق الخاصة بهذا العهد ، والتى بدون الاطلاع عليها يصعب الاطمئنان إلى دقة وعلمية نتائج البحث . والبحث فى حالة التربية الغربية فى عصر النهضة الأوربية ، مفروض فيه أن يكون على دراية كافية باللغة الإيطالية .. وهكذا .

وبالتالى يصبح من الأمانة العلمية ألا يقدم باحث على دراسة فترة تاريخية فى تطور التربية وهو يعلم بجهله بلغة هذه الفترة ، إلا إذا عزم وشمر عن ساعد الجد لمعرفة هذه اللغة . وقد طالب الفيلسوف الألمانى " شليجل Schlegel " دارسى التاريخ الألمانى بأساس لغوى قوى يمكن الباحثين من البحث فى السجلات . وانتقد ظاهرة أن ما قام به الأجانب - كما ذكر - أكثر بكثير مما أنجزه الباحثون الألمان ، وكان لمقاله هذا فضل كبير فى الحث على ما عرف بدراسة اللغويات التاريخية (١٤) .

ولعلنا نلاحظ أن أى باحث من الباحثين الأجانب ، إذا أراد أن يبحث فى فترة تاريخية تتصل بتاريخ التربية فى مصر ، لا يعتمد فقط على ما كتب بلغته الأجنبية ، رغم أنه كثير ، لكنه يحرص الحرص كله على تعلم اللغة العربية ، بل ولا يكتفى بتعلم هذه اللغة من القواميس وفى معاهد تعليمها ، وإنما يحرص على أن يعيش فترة من الزمن بين أهل البلد أنفسهم ، إذ كثيرا ما تكون اللغة المعاشة أكثر دلالة على حقائق ، لا تشير إليها بدقة اللغة المكتوبة ، وخاصة فى اللغة العربية .

ولا شك أن الاعتماد على ما نشر من مجموعات الوثائق أو الاتفاقيات ، لا يغنى بحال من الأحوال ، ولابد أن يطلع الباحث بنفسه على الوثائق الأصلية ويختار منها هو ما يرى نشره أو استخدامه وما يلقى الضوء على موضوع بحثه وما يؤيد رأيه أو ينقض رأيا شائعا ، إلى غير ذلك ، فهذه هى الإضافة الحقيقية المطلوبة من الباحث . وعلى سبيل المثال ، يجد الباحث فى التعليم فى عصر محمد على أن د. أحمد عزت عبد الكريم قد نشر معظم ما يتعلق بتعليم هذه الفترة ، وكان مؤرخنا على درجة عالية من الدقة والأمانة العلمية ، بحيث يمكن للباحث أن يعتمد على ما نشره ، لكن الأفضل

أن يطلع الباحث الجديد على بعض منها على الأقل ، فلربما كانت قراءة مؤرخنا مختلفة التوجه ، ولربما ترك أمورا لم يرى لها أهمية ، بينما قد يرى الباحث الجديد أهمية لها ، وربما فسر أمورا استنادا إلى وقائع ، إذا أعيدت قراءتها نصل إلى تفسيرات أخرى .. وهكذا .

ومما يذكره باحثو التاريخ ، أن تاريخ مصر الفرعونية ظل مجهولا إلى حد كبير إلى أن استطاع العالم الفرنسى الشهير " جان فرنسوا شامبليون J.F.Champollion " عام ١٨٢٢ أن يهتدى إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية ، ذلك أن المؤرخ تمكن بذلك من الاطلاع على النصوص والنقوش والكتابات على أوراق البردى . كذلك ، فمنذ أن تمكن العالم البريطانى " السيرهنرى رولنسن S.H.Rawlinson " بين أعوام ١٨٤٧-١٨٥٠ من حل رموز الكتابة المسمارية لبلاد ما بين النهرين بدأت الدراسات التاريخية والأثرية تظهر تباعا عن تلك المنطقة وتعمل على إماطة اللثام عن عالم مجهول التاريخ القديم (١٥) .

وكذلك ينبغى على الباحث فى تاريخ التربية أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوربية الحديثة الشائعة الاستعمال ، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية ، وإن قصر فى معرفة بعضها ، يمكن أن يواظب على دراستها حتى يبلغ المستوى الذى يتيح له فرصة الإفادة بها ، وهذه لغات غنية بتراثها الأدبى والتاريخى ، ويجتذب انتشارها كثيرا من الباحثين فى التاريخ إلى التأليف فيها ، ولا يجوز أن يفوت الباحث الدراسات التاريخية الثمينة الرائعة التى أثمرتها بعض هذه اللغات ، أو كلها (١٦) .

من أجل هذا ندب عدد من الباحثين أنفسهم فى مجالات التاريخ القديم والوسيط والحديث على إعداد قواميس مساعدة ، لا تقوم بمهمة الترجمة بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الألفاظ والتعابير التى كانت شائعة فى عصر ما ، فالباحث ، مثلا ، فى تاريخ التربية فى حقبة تقع فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، قد يكتفى بضرورة معرفة اللغة التركية ، مطمئنا إلى أنه باعتباره عارفا باللغة العربية ، فسوف يستطيع أن يقرأ ويفهم ما يصل إلي يديه من نصوص ووثائق ، لكن هذا غير صحيح ، فكم هناك من ألفاظ ومصطلحات وتعبيرات عربية ، هجرت وحل محلها غيرها ، وهذا

واضح فى التاريخ الذى كتبه الجبرتى . ومن هذه القواميس الخاصة التى نشير إليها قواميس تاريخية " لدوزى Dozy " ولألب رفائيل نخلة اليسوعى : غرائب اللهجة اللبنانية – السورية . كما صدر كتاب للدكتور أحمد السعيد سليمان يفسر بعض التعابير الغريبة الواردة فى تاريخ الجبرتى ، بعنوان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) . وقد تواجه الباحث بعض العبارات المختصرة وهو الأسلوب الذى اتبعه الأوائل (١٧) .

ولعل هذا ما يبرز لنا أهمية دراسة " الفيلولوجيا Philolgy " ، أو علم فقه اللغة ، وهو علم له أصوله وقوانينه الخاصة التى تفسر لنا تطور ألفاظ اللغة وقواعدها ، ذلك أن اللغة مثلها مثل الكائن الحى تنمو وتتطور ، فالإنجليزية فى القرن السادس عشر غيرها فى القرن العشرين ، والتركية التى كانت تكتب بحروف عربية منذ قرون غير التركية التى تكتب الآن بحروف لاتينية ، والمسألة ليست مجرد تغيير حروف ، وإنما يرتبط بذلك أيضا تحول ضرورى فى منطق اللغة وتراكيبها .وبالتالى فكلما بعد العهد الذى يشكل موضوع الدراسة برزت أكثر أهمية فقه اللغة ، على اعتبار أن اللغة ليست علامات جبرية أو أرقاما تستخدم كما فى العلوم الطبيعية للدلالة على معان وكميات محدودة ، وإنما تتغير بتغير الزمان والمكان واختلاط الثقافات . وفى بعض الأحيان قد يدل لفظ لغوى على معنى محدد تماما ، كما قد يدل لفظ لغوى على معان نسبية أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه (١٨).

ومن يطلع على بعض نصوص (كتاب الخصائص) لأبى الفتح عثمان بن جنى ، يدرك أهمية دراسة فقه اللغة ، وعلم اللغة ، وكذلك دراسة اللهجات ، وعلى سبيل المثال ، فإن الجاهل باللهجات العربية السبع وبفقهها ، أو كما كان يسميها العرب القدامى " اللغات السبع " ، يصبح من العسير عليه فهم النصوص وتحليلها ، بالرغم من أنها لهجات أو لغات عربية ، فمعرفة هذه اللهجات وإتقان معانيها والدراية بها لها الأولوية لمعرفة وفقه وفهم النصوص ، إذا كان موضوع البحث يتعلق بالتأريخ للتربية فى صدر الإسلام (١٩).

ويندرج تحت هذا أيضا الخطوط واختلافها ومعرفة عصرها وزمانها ، وقد أصبحت دراسة الخطوط باعتبارها من العلوم المساعدة يسمى" علم قراءة الخطوط Paleography "، وظهرت مؤلفات فى هذا الموضوع تضم نماذج للخطوط المختلفة القائمة بالأقاليم والمناطق والعصور . وهذا العلم أصبح من المهارات الجديدة التى يجب على المؤرخ أن يهتم بها ويحاول أن يكتسبها . وتظهر أهمية قراءة الخطوط بصفة خاصة عند دراسة وتحقيق المخطوطات التى كتبها علماء تربية قدماء ، إذ أنه من الأهمية القصوى للباحث أن يحدد زمن نسخ المخطوط أو زمن كتابته اعتمادا على الخط الذى كتبت به (٢٠) .

٢ – علم الآثار Archaelogy : وهو علم البحث عن أصول الحضارات حيث الجذور وتشكيل الذات ، وميدانه هو ما أنتجته يد الإنسان فى العصور السابقة فى كل مكان ، وهو من علوم التآخى بين الشعوب ، يفسر مراحل الأخذ والعطاء بينهما ، وعن طريقه تستطيع كل أمة أن تتعرف بصدق على منابع شخصيتها وقواعد بنياتها ، ويتكون لديها وعى علمى بتراثها المشترك الذى يحدد مكانتها بين مسيرة الأمم .

هذا وتمثل الدراسات الآثارية ، بطابعها النظرى ، وميدانها العلمى مكانا بارزا بين الدراسات الإنسانية المتكاملة بما تقوم عليه من بحوث فى خصائص العمارة والفنون والصناعات ، وما تؤدى إليه من بحوث فى اللغات والعقائد والتاريخ ، وما تمارسه من بحوث فى المجالات العلمية للكشف والتنقيب ، ولا ريب فى أن الآثار بفروعها المختلفة هى التاريخ الحى لكل أمة ، وهى الشاهد القائم على ما بدأت به حضارة أهلها ، وما تطورت إليه ، وما أسهمت به فى تاريخ البشرية ، كما أنها التعبير الصادق عن أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم (٢١).

من أجل هذا فقد صار مؤرخو العصور القديمة يعتمدون اعتمادا كبيرا على النتائج العلمية التى يتوصل إليها علماء الآثار الذين يقومون بحفر الأرض بمعاولهم ، ويقيمون تحت لهيب الشمس الحارقة بهدف كشف جوانب مجهولة من الحضارة ، وخاصة أن هؤلاء المؤرخين يجدون ماضى البشرية يبرز من خلال الآثار والمدونات من بقايا الماضى التى تركها السلف والتى تعد فى بعض الأحيان المصدر الوحيد لبعض

حقب التاريخ القديم ، فقد أمدنا علم الآثار الفرعونية القديمة ، مثلا ، بمعلومات هامة عن الطقوس الدينية والحياة الأسرية والاجتماعية والحرف والتقاليد والعادات ، فضلا عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى عاشتها مصر خلال هذه الأيام ، وهذه المعلومات فى مجملها تعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص الناطقة ، وتستند على أساس من البيان الصامت الصادق الذى يترك المؤرخ أعمال القدماء ومخلفاتهم تتحدث عن نفسها بهدف معالجة قصة الإنسان وحضارته خلال آلاف عديدة من السنين ، والكشف عن نشأة الحضارة وتطورها (٢٢) .

٣ - الجغرافيا : فالظواهر الجغرافية ، كالسطح ، والمناخ ، والنبات ، وغيرها ، عظيمة الأثر فى الأحداث التاريخية ، فإذا كانت الجغرافيا موضوعها هو (المكان) ، والتاريخ موضوعه (الزمان) ، فإن التطور الإنسانى لا يتضح جليا إلا عند تفاعل المكان مع الزمان .

وقد ارتبط تاريخ عديد من الأقطار بموقعها الجغرافى ، بالإضافة إلى المعالم الجغرافية الأخرى ، ولعل تاريخ مصر من أبرز التواريخ التى يظهر فيها أثر موقعها الجغرافى فى الركن الشمالى الشرقى من قارة إفريقيه ، وبسواحلها المطلة على البحرين المتوسط والأحمر ، وظهر ذلك طوال العصور ، فكان اتصالها مستمرا بالحضارات التى نشأت فى حوض البحر المتوسط ، وإلى الدرجة التى جعلت مفكرا بارزا مثل طه حسين يدعو إلى توثيق الروابط بثقافة البحر المتوسط والبلدان التى تحيط به مؤكدا أن هذا هو المحيط الطبيعى للعقل المصرى ، وأننا أقرب إلى عقلية المتوسط منا إلى العقلية الشرقية .

وكان موقع مصر له أثره كذلك فى الالتقاء بالحضارة الفينيقية ، ومن قبل بحضارة الفرس ، ثم بالحضارة اليونانية ، فالرومانية ، وكل حضارة من هذه الحضارات لم تكن مجرد جيوش وغزو عسكرى ، بل كان من الضرورى أن يكون لها أثرها على الثقافة المصرية وعلى تكوين الشخصية المصرية ، والذى يحلل اللهجة المصرية والعادات الاجتماعية المصرية ، لا يفاجأ بأن يجد أثرا من كل حضارة من هذه الحضارات ، حتى اليوم . وهيأت الصحراء الغربية الواسعة لمصر حماية طبيعية ، فلم تتعرض لجيوش

منظمة غازية من هذه الجهات فى تاريخها إلا فى فترات محدودة (٢٣) ، مما كان له أثره فى افتقاد الاتصال الحضارى بالجوار الجغرافى الغربى . وإن كان التأثير الثقافى المصرى قد استطاع - على المستوى الفردى - أن يقهر هذه الصحراء ، وخاصة بعد أن استظلت مصر بالمظلة الإسلامية ، فهرع بعض الباحثين عن المعرفة الإسلامية إلى الأزهر يطلبون فيه العلم .

وتأثر تاريخ مصر الحديثة بهذا الموقع الفريد ، فكان أن جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون ، ومنذ ذلك الوقت بدأ التأثير الثقافى الغربى يعرف طريقه إلى الثقافة المصرية ، وخاصة التأثير الفرنسى . ثم زادت أهمية الموقع بعد حفر قناة السويس ، فحرصت انجلترا على أن تحتل مصر مما كان له دوره فى تأثير الثقافة الإنجليزية على التعليم والثقافة ، وشهدنا صراعا بين الثقافتين الفرنسية والإنجليزية على أرض الثقافة والتعليم ، فكان أن توزعت الآثار بينهما .

وللدكتور جمال حمدان دراسته الشهيرة ل " شخصية مصر " حيث يبرهن على أن خصائص وطبيعة جغرافية مصر ، من حيث اعتدال المناخ ، والتجانس الملحوظ بين مختلف أنحاء البلاد ، قد أدت إلى أن تتسم الشخصية المصرية بقدر كبير من التجانس والتسامح والاعتدال ، ولعل هذا يفسر إلى حد كبير ، كيف أن الدولة الفاطمية ، رغم طول العهد بها فى مصر ، وإقامتها " الأزهر " مسجدا وجامعة تبث من خلاله مذهبها المختلف عما يذهب إليه أهل السنة ، لم تستطع أن " تجذر " تعاليمها وآرائها فى التعليم المصرى ، بل لقد تحول الأزهر إلى معهد للتعليم وفقا للمذهب الشائع من قبل ومن بعد وهو مذهب أهل السنة ، لقربه من طبيعة الشخصية المصرية التى لم تألف التطرف والغلو .

وموقع الجزر البريطانية نفسها أثر على تاريخها أبلغ الأثر ، فظلت بعيدة إلى حد كبير عن غزو أعدائها لها فى عقر دارها - يقال ذلك عن حروبها مع نابليون ، أو حروبها مع هتلر - ، كما كان لهذا الموقع أثره فى السيادة البحرية للإنجليز ، فاكتسبت أساطيلهم شهرة واسعة وحرصوا على تحطيم كل منافس لهم فى هذا المجال (٢٤) .

ولعل الدور الذى لعبه مناخ روسيا فى هزيمة الجيوش الألمانية فى الحرب العالمية الثانية ، ومن قبل ، فى إخفاق هجوم جيش نابليون عليها فى القرن الماضى ، لأكبر دليل على الأثر الجغرافى فى مجرى التاريخ ، فرغم أن الروس ، كانوا فى سنة ١٩٤٢ قد فقدوا خلال حربهم ضد الألمان الحقول الغنية بالقمح فى أوكرانيا ، والجهات الصناعية الهامة فى حوض الدينبر ، كما استحوذ الألمان على مناجم فحم حوض الدونتز وجميع أرجاء شبه جزيرة القرم – ما عدا سيباستبول – لكن حل شتاء روسيا القارس البرد على الألمان وهم يدكون أبواب موسكو ولينينجراد ، فاستعصى عليهم فتحها واضطروا إلى التراجع ، وانتهى الأمر بالتسليم فى ١٩٤٣/١/٣١ ، وهكذا تضافرت الطبيعة على هزيمتهم ، كما حدث من قبل لجيوشهم فى أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، فى معركة العلمين التى كانت نقطة تحول فى مصير الحرب فى ذلك الميدان الحيوى (٢٥).

ومن المعروف أن هناك فرعا خاصا فى العلوم الجغرافية يعرف باسم " الجغرافية التاريخية " ، وهى التى تهتم بدراسة التطور التاريخى وحركات السكان المختلفة . كما توجد فروع جغرافية أخرى ، منها على سبيل المثال ، جغرافية السكان ، الجغرافية الاجتماعية ، الجغرافية الاقتصادية ، الجغرافية السياسية ، جغرافية السلالات ، الجغرافية الفلكية والرياضية ، جغرافية التخلف أو العالم الثالث ، جغرافية الأحياء ، جغرافية التربة ، جغرافية البحار والمحيطات ، الجغرافية المائية ، بالإضافة إلى الجغرافية المناخية ، والجيومورفولوجيا ، أى علم التضاريس . بالإضافة إلى ذلك فإن علم ال " Toponymy يمكن أن نستثمره فى الكتابة التاريخية ، فهو علم يهتم بالدراسات اللغوية أو التاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية ، فالمؤرخ لابد له أن يطلع على المؤلفات الجغرافية التى تبحث فى أسماء المدن والبلدان والقرى والمواقع ، لا سيما عند بحثه لتاريخ التربية لمدينة ما ، مثل البحث عن المدرسةالشهيرة التى أقيمت فى مدينة الإسكندرية فى عصر البطالمة ، والبحث فى اسمها وأسباب هذه التسمية . وتلك المؤلفات هى كثيرة لمختلف المدن والبلدان وفى مختلف اللغات (٢٦) ، ومن أشهرها ، " معجم البلدان " لياقوت الحموى ، و" نزهة المشتاق لاختراق الآفاق " للشريف الإدريسى و" أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " للمقدسى و" الخطط المقريزية " للمقريزى ، و" الخطط التوفيقية" لعلى مبارك ، وغيرها .

٤ – علم الاجتماع : فما كان علم الاجتماع يعنى حركة المجتمع وتطوره ، ولما كان المحرك لأى مجتمع هو الإنسان وما يحيط به من ظروف ، برزت أهمية علم الاجتماع فى الدراسات التاريخية ، فهو يساعد المؤرخ فى إثراء فكره التاريخى وتوسيع دائرة الأحداث ، وقد كان ابن خلدون المؤرخ هو مؤسس علم الاجتماع ، فهو عندما شرع يرصد الاتجاهات الرئيسية لحركة التاريخ وقواعدها ودلالاتها ، إذا بنا نجد أن ما توصل إليه يشكل البذور الأولى لعلم الاجتماع ، ومقدمة ابن خلدون يستطيع الباحث أن يتعامل معها باعتبارها مرجعا بارزا ، وعظيم القدر فى فلسفة التاريخ ، وبنفس القدر يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يتناولها من زاويته (٢٧) ٠

والباحث إذا عاد إلى بعض المراجع الأساسية فى علم الاجتماع ، فسوف يجد أن موضوعاته ، تشكل خلفية ، بل وأساسا لا غنى عنه فى تفسير حركة التاريخ فى هذا المجتمع أو ذاك ، فمن موضوعاته : الثقافة القائمة ، وجملة العادات والتقاليد ، والدراسة التشريحية للنظم الاجتماعية القائمة ، مثل النظام السياسى والنظام الاقتصادى والنظام الاجتماعى ٠٠ الخ ، كما يجد تحليلا للمؤسسات الاجتماعية المختلفة مثل الأسرة بما تقوم عليه من قواعد وتنظيمات وما يسودها من عادات وتقاليد ، وأشكالها وعلاقات السلطة فيها ، ونفس الشىء بالنسبة لدور العبادة ومؤسسات الترفيه والرعاية الاجتماعية ٠

وقد شهد علم الاجتماع تطورات كثيرة ، فظهرت فروعه المختلفة ، منها علم الاجتماع السياسى الذى يربط بين الظواهرالسياسية والظواهر الاجتماعية ، فيرتبط أشد الارتباط بالتاريخ ، حيث يدلى عالم الاجتماع السياسى فيه بالتفسيرات الاجتماعية للأحداث التاريخية ، ونفس الأمر بالنسبة لفرع علم الاجتماع المسمى بعلم الاجتماع الدينى ، وعلم الاجتماع الاقتصادى ٠ ولعلنا يمكن أن نقول أن الباحث فى علم الاجتماع يتناول الأحداث التاريخية فى إطار تحرك الجماعات ونموها وتطورها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بما يتضمن هذا من عوامل مختلفة تظهر فى مجتمع من المجتمعات ٠ ولعل مما يعزز أهمية هذا العلم فى التأريخ التربوى ، ظهور ما أصبح يعرف باسم علم الاجتماع التربوى الذى يدرس أوجه التفاعل بين الظواهر الاجتماعية والظواهر التربوية ٠

ومن أبرز فروع علم الاجتماع التى ظهرت حديثا ما يسمى بعلم اجتماع المعرفة ، الذى كان له أبلغ الأثر فى تطوير الدراسة التأريخية وتوجيهها أكثر إلى الزوايا والرؤى المجتمعية ، فهذا العلم ينصب اهتمامه على دراسة الشروط المجتمعية التى تظهر فى كنفها الأفكار والنظريات والفلسفات المختلفة ، وهذا بدوره يصبح ضروريا للمؤرخ من حيث مده بمزيد من الأدوات ووسائل التحليل التى تعينه على مزيد من الفهم والتفسير عندما يتصدى لدراسة تطور الأفكار المختلفة . وتزداد أهمية ذلك فى تاريخ التربية بصفة خاصة ، فنحن نعلم أن قسما كبيرا من هذا التاريخ يتجه إلى تطور الآراء والأفكار والفلسفات التربوية ، فنعلم بالتالى جملة الظروف التى تفسر ظهور هذا الفكر التربوى أو ذاك فى مجتمع بعينه أو فى حقبة معينة من الزمان . وقد تلاقى هذا مع تطور طبيعى فى الدراسة التاريخية عندما تنبه كثيرون إلى أن عملية التأريخ لا ينبغى أن تقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية وحدها بل لابد من أن تمتد لتشمل مختلف الأبعاد المجتمعية ، كما لا ينبغى أن يقتصر التأريخ على الزعماء وقادة الدول ، بل لابد أن يدخل فى دائرة اهتمامه مختلف الشرائح والطبقات الاجتماعية .

٥ - علم الوثائق : أو علم الدبلومات Diplomatics ، والوثائق فى المعنى العام تدل على كل الأصول التى تحتوى على معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دون منها على الورق ، ولكنها فى المعنى الذى اصطلح عليه الباحثون فى الدراسات التأريخية ، وبالتالى فإن هذا المعنى فى دراسة تاريخ التربية يجعلنا نعتبرها هى الكتابات الرسمية فى التعليم - أو شبه الرسمية - مثل الأوامر والقرارات الوزارية والمعاهدات والاتفاقيات الثقافية والتعليمية التى تعقد مع دول أخرى ، والمراسلات التى تتبادل بين وزراء التربية والتعليم ، والكتابات التى تتناول الجوانب الاقتصادية للتعليم ، أو نظمه ، أو التقاليد السائدة فى العملية التربوية وما يصيبها من قوة أو ضعف ، أو المشروعات التربوية أو المقترحات المتنوعة التى تصدر عن المسئولين عن التعليم فى الدولة أو التى تقدم إليهم ، أو المذكرات الشخصية أو اليوميات ، كما نرى فى مذكرات د.محمد سيف الدين فهمى (قصتى مع التربية) ، وإن كان هذا النوع من الوثائق نادر بالنسبة للعاملين فى حقل التعليم مع الأسف الشديد (٢٨) .

والدارس لهذا العلم يجمع بين عمل الآثارى فى حفره وتنقيبه وعمل المحقق الباحث فى فك الرموز والطلاسم التى يقدمها النص وبخاصة فى الوثائق التركية العثمانية والفارسية أو العربية التى كتبت فى العصر العثمانى وما يقرب منه ٠ وإلى جانب ذلك فإن علم الوثائق يساعد المؤرخ على التعرف تطور نوع الورق أو الزجاج أو المادة التى كتبت عليها الوثيقة ، والخاتم الذى مهرت به ونوعه (٢٩) ، ولا غرابة بناء على ذلك فى أن تعتبر الوثائق بمثابة المادة الخام التى يصنع منها التاريخ والتى يمكن أن تنطوى على أفكار جديدة وخلاقة ، لأنها بقيت على حالتها التى صيغت بها ، ولأنها أقدم مصدر يمكن العثور عليه لإيضاح حدث معين ، ولأنها الشىء الوحيد الذى يقوم عليه التاريخ (٣٠) ٠

وعلى الرغم من تلك الأهمية الكبرى التى نوليها للوثائق إلا أنها يمكن أن تقود الباحث إلى طريق يجافى ما وقع ، وذلك لأن الوثيقة ربما تكون قد خضعت لعملية فنية دقيقة لاستبدال لفظ مكان آخر أو عبارة مكان أخرى ، مما يبدل فى دلالتها واتجاهها ٠ كذلك فإننا نعود لنذكر القارى بما أسلفنا الحديث عنه من أن الذى يسجل ويدون ليس ملاكا ، وليس كل الناس بالضرورة أمناء ، رغم ضرورة هذا ، فهناك الأهواء الشخصية والتعصبات المذهبية والدينية ، والخصومات ، وهل هناك ما هو أخطر وأدل على ما نقول مما قام به البعض من " وضع " أحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤيدوا بها شخصا أو اتجاها أو سلوكا على الرغم من تأكيد الرسول على أن من يكذب عليه عامدا متعمدا فسوف يتبوأ مكانا مخزيا فى نار جهنم؟ ومثل هذا وذاك يوجب الدقة فى النظر والنقد مما سوف نفصل فيه القول فى فصل تال ٠

ومن هنا ينبغى على دارس تاريخ التربية أن يتعلم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذى يعنيه ، ولابد له من أن يعرف نوع المداد المستعمل وخصائصه ، مثل العلامة المائية والألياف التى تتضح عند تعرض الورق للضوء وتستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط والحبر والورق ، فبواسطة بعض العدسات المكبرة الخاصة وبواسطة المجهر يمكن تحديد ضغط القلم وميل الكتابة ، والصفات الخاصة بالكاتب وطريقة كتابته لبعض الحروف ، ولون الحبر ، وكذلك يمكن بواسطة المجهر والتحليل الكيميائى معرفة عمر الورق ، وأحيانا يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة

الحمراء والبنفسجية لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المغيرة عمدا . وكل هذه المعلومات تساعد الباحث على التثبت من صحة الوثائق التى تقع تحت يده أو بطلانها (٣١) .

٦ – الأدب : فقد بينت الدراسات العلمية الحديثة للأدب خطأ تلك النظرة التى كانت ترى أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنثور والمنظوم ، وأن يلم بهذا المنثور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب ، بشرحه وتفسيره ونقده لكى يكون أديبا ، وأن النظرة السليمة هى أن الأديب مرآة صافية وضاءة أمينة لما فى عصره إن كان أديبا منشئا وليس المختار من المنظوم والمنثور إلا صورا لألوان من حياة الأفراد والجماعات ، وفيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الردىء ، فيها الرضى وفيها البغيض ، ومن هنا فدارسو الأدب لا يقنعون الآن بهذه الصورة يحفظونها ويستظهرونها ويلقون عليها أبصارهم متعجلين ، ولا ينعمون النظر والتأمل ، وإنما يسعون إلى أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا – إلى أقصى حدود المعرفة – دقائق هذه الحياة النفسية التى اضطربت بها الأفراد والجماعات فأنشأت ما أنشأت من نظم ومن نثر (٣٢) .

وبهذا فإننا لا نبالغ عندما نؤكد تلك العروة الوثقى بين التاريخ والأدب ، وبضرورة أن يطلع المؤرخ والباحث فى عصر ما من عصور تاريخ التربية على ألوان وصور وأشكال الأدب التى كانت شائعة ، ولا ينظر إليها على أنها محض خيال للكاتب ، وسبحات عقل فى دنيا أمانى وأحلام يقظة وتخيلات مفككة الأوصال. إن الأدب ، باتفاق غالب الآن ، هو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه ، وهو يفصح عن داخل البشر ، ويصور أحلامهم وأمانيهم ، فالأدب المصرى القديم على سبيل المثال ، وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من آثاره ، يساعد الباحث فى التاريخ التربوى على تعرف نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة ، فالبيئة المصرية القديمة – بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها – قد أوحت إلى الكتاب المصريين القدامى بالتعبير عن

مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة ، فكتبوا عن معبوداتهم ، وعن تصوراتهم للعالم الآخر ، ودونوا قصصا خيالية وكتبوا فى الأدب التعليمى لتهذيب الأبناء والتلاميذ (٣٣) .

ولدينا ، على سبيل المثال ، كتاب أدبى من عصر الدولة الوسطى يحتوى على نصائح والد لابنه ، وقد نقلته مدارس (الكتبة) ، وهو كتاب النصائح التى وجهها " خيتى بن دواوف " لابنه " بيبى " ، وقد ظلت هذه التعاليم أو النصائح تعرف بتعاليم " دواوف " إلى عهد قريب . والواقع أن صاحبها هو " خيتى بن دواوف " ، وهذه التعاليم تصف لنا بصورة قاتمة عنيفة البؤس والشقاء الدائم الذى كان يعانيه كل فرد لا يحترف الكتابة (أى غير متعلم) ، إذ كان الموظف المتعلم يعتبر مسيطرا على الناس ، وكان يغبطه على عمله كل أصحاب الحرف الأخرى . وإذا كانت الأوصاف التى جاءت فى هذه التعاليم صحيحة فى تفاصيلها ، فإنها تضع أمامنا صورة تدل على روح يغمره التحيز (٣٤) ، إنها تعاليم ألقاها مسافر اسمه خيتى بن دواوف لابنه بيبى فى سفينة حينما سافر مصعدا فى النهر إلى عاصمة الملك ليلحق ابنه بالمدرسة بين أولاد الحكام . وهذا العنوان وحده يكشف لنا عن حقائق خطيرة من الوجهة التعليمية والتاريخية ، فمنه نعلم أنه كان يوجد مدرسة جامعة يتعلم فيها أولاد علية القوم فى عاصمة الملك ، وأن العاصمة كانت وقتئذ فى الوجه القبلى ، لأنه كان على خيتى أن يقلع بالسفينة مصعدا فى النهر . ومن الجائز أنها كانت وقتئذ (أهناسية المدينة) أو (طيبة) . هذا إلى أن هذه المدرسة كان يعلم فيها أولاد حكام المقاطعات ومن فى طبقتهم .

وعلى أية حال ، فقد عالج القوم فى آدابهم نواح مختلفة من الآداب ، فكتبوا فى المواعظ وآداب السلوك ، وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفة ، وضمنوها الأمثال والحكم الخالدة على مر الأيام ، وكر السنين ، وأنشأوا المقالات فى الإصلاح السياسى لعلاج ما تفشى - فى فترة ما - من مساوىء وما حل بالمجتمعات من نكبات ، وصنفوا الرسائل فى المناسبات والأغراض المختلفة فى التهانى والتواصى والتمنيات

والتراجي والتفاضل والمفاخرة وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها ، وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر إنما هى موطن القصة القصيرة ، وصاغوا الأناشيد وألفوا الأغانى والتمثيليات الدينية (٣٥) .

ومن المرجح كذلك أن الشعر الجاهلى إنما هو مصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ، ووقر فى أذهان الدارسين السابقين أن الشعر القديم من لوازم الحياة العربية ، وجد منذ أن وجدت ، إلى درجة أن لفظة (عربى) ترادف عندهم لفظة شاعر ، فالعربى شاعر بطبيعته وسليقته (٣٦) ، وقد أضحى الشعر مع الزمن ديوان هؤلاء العرب ، يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم وديناتهم ، وإن شئت فقل : إنهم سجلوا أنفسهم فيه ، كما نستطيع أن نستدل به على جغرافية شبه الجزيرة العربية وما فيها من جبال ووديان وسهول ونبات وحيوان ، فضلا عن عقيدة القوم فى الجن والأصنام وفى الخرافات (٣٧) .

وهكذا أصبح الشعر بصفة خاصة علم العرب قبل الإسلام الذى ليس لهم علم أصح منه كما يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد كانت القبيلة من العرب ، إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليدا لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج ، كما قال ابن رشيق (٣٨) .

٧ – علم الاقتصاد : وقد وصل الأمر إلى أن ماركس وزميله انجلز ذهبا – وسار وراءهم ما يصعب حصره من الباحثين المشايعين – إلى تفسير التاريخ تفسيرا اقتصاديا محضا ، مما سيأتى تفصيله فى الفصل القادم . ومع اعترافنا بأن هذا الاتجاه مبالغ فيه إلى حد كبير ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكره كلية ، فالظروف الاقتصادية كانت – وما زال – لها أبلغ الأثر فى تطور التربية فى مختلف المجتمعات ، وكان العامل الاقتصادى من أهم العوامل فى حياة الإنسان الحضارى ، على أنه تدرج من الالتقاط إلى الرعى ، إلى الزراعة ، إلى الصناعة .. وهكذا . وأصبحنا نقيس حضارة الإنسان

بمدى استغلاله لما تقدمه له البيئة من إمكانيات ، ومدى تغلبه على العقبات التى تعترض طريقه فى سبيل تذليل حياته وسد احتياجاته (٣٩) ٠

ومما لا شك فيه أن لكل مرحلة من مراحل تطور الإنسان (التقاط ، رعى ، زراعة ، صناعة) أساليبها التربوية ، وقيمها المعيارية ، ومهارتها المفروض تعلمها ، وبطبيعة الحال ، معارفها الخاصة التى أمكن للإنسان أن يصل إليها بجوانبها المختلفة ٠ ومما لا شك فيه كذلك أن " المدرسة " كمؤسسة متخصصة فى التعليم لم يكن يتصور أن تظهر فى المرحلتين الأوليين ، حيث كان الإنسان يمضى معظم وقته فى البحث عن لقمة العيش متنقلا راحلا من مكان إلى آخر لا يكاد يعرف الاستقرار ، فضلا عن أنه لم يكن قد وصل بعد إلى فترة يفيض فيها إنتاجه عن حاجته ، بحيث يمكن أن يقتطع من وقته وقتا يمضيه فى التعلم فى مدرسة ٠

وقد برز العامل الاقتصادى فى الحروب ، فاستخدم كل من نابليون وانجلترا هذا السلاح ضد الطرف الآخر ، وظهر هذا العامل أيضا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ٠ ولعل دخول الولايات المتحدة الأمريكية فى صف الحلفاء ومساندتها الاقتصادية لهم كان كفيلا بترجيح كفتهم فى كل من الحربين ٠ وعلى الرغم من احتمال صحة دوافع أخرى ، فإن التفسير المرجح لحماس الولايات المتحدة الأمريكية غير الطبيعى لمحاربة العراق عندما غزا الكويت إنما يكمن فى ما تتمتع به منطقة الخليج من إمكانيات نفطية غير محدودة ، وليس كما تدعى ، غيرة منها على حق دولة صغيرة فى أن تتمتع باستقلالها وأمنها الوطنى ٠

ولعبت العامل الاقتصادى أيضا دورا مهما فى الاستعمار الأوربى الحديث ، فكان من أهداف الدول الاستعمارية الاستحواز على المواد الخام الأولية والأسواق التى تسد حاجة الدول الصناعية ، ومن ثم كان الاستعمار الاقتصادى هو المظهر البارز للاستعمار الحديث (٤٠) ٠ وفى عالمنا المعاصر ، نسمع كثيرا عما يسمى " بالعولمة " التى سوف يكون لها أثار بعيدة المدى على التربية والتعليم وعلى حركة الفكر والثقافة ، وجوهرها إنما يسعى إلى أن يصبح العالم سوقا كبرى مفتوحة ، متروكا للمنافسة الحرة ،

وبطبيعة الحال فسوف تفوز به نفس الدول الكبرى ذات الاقتصاد المهيمن والقوة العسكرية الجبارة ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان ظهور الدولة لأول مرة فى تاريخ مصر ، منشئة ومسيرة ومنظمة للتعليم الحديث مرتبطا أشد الارتباط بسياستها الاقتصادية التى قامت على الاحتكار ، والأخذ بقدر من حركة التصنيع الحديث . وفى أوائل الاحتلال البريطانى لمصر كان المبرر الاقتصادى واضحا فى سياسة تقليص الجهود التى كانت قائمة من قبل ، فى عهد إسماعيل ، لنشر التعليم ، حيث كانت مشكلة الديون قد تفاقمت إلى درجة مفزعة حقا . وكان التزام الدولة بتشغيل الخريجين منذ الستينات حتى الثمانينات إنما هو نتيجة كان لابد منها للفلسفة الاشتراكية التى ظلت تحكم حركة الاقتصاد المصرى ، وتغير الحال إلى العكس ، بازدياد أخذنا بالتوجهات الرأسمالية والتخلى عن النهج الاشتراكى ، وهذا أيضا يفسر التزايد المستمر فى دائرة القطاع الخاص فى التعليم ، وظهور جامعات خاصة ، وهو الأمر الذى كان يدخل فى باب " المحرمات " من قبل .

٨ – الفنون : والإلمام بنواحى من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصر ما ، يساعد كذلك على فهم تاريخه ، وهذه الفنون – مثلها مثل الآثار الأدبية – مرآة للعصر ، فهذه الفنون فى مصر القديمة ، وخذ مثالا ، الأهرامات ، والمعابد ، ليست مجرد أحجار أخذت أشكالا فنية بديعة ، وإنما هى رموز دالة على مستوى حضارى يضم عددا مذهلا من صور التقدم فى علوم مختلفة وآداب متعددة وأساليب حياة خاصة . ونفس الشىء بالنسبة لفنون آشور ، والهند ، والصين ، واليونان ، والرومان ، وفى فرنسا وانجلترا ، كلها تعكس صورا دقيقة لحضارات تلك البلدان ، وتبين كثيرا من خفايا أهلها ومن حياتهم الواقعة ، ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيهم (٤١) .

ولعل من أبرز ما يمكن أن نسوقه تدليلا على ذلك الشكل المعمارى الذى اتخذته المدرسة فى العصور الإسلامية من حيث بنائها ، فالملاحظ فى غالبية المدارس الإسلامية أن جدار القبلة هو العامل الرئيسى فى تخطيطها ، وأن حدودها الداخلية تنتظم فى مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار ، ويتضح تبعا لذلك أن لكل من

هذه المدارس بيتا للصلاة (٤٢) ، وأن هذا البيت يتصدر بناءها وأنه أكثر قاعاتها أهمية واتساعا ، ويلاحظ فى بيوت صلاة معظم المدارس أنه قد روعى فى تخطيطها أن تمتد فى موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها فى اتجاهه ٠

وخضعت المدرسة الإسلامية فى كثير من الأحوال للتقاليد المحلية ، ففى فارس أثرت الإيوانات الساسانية على بناء المدارس العراقية والشامية والمصرية ، فأصبحت قاعاتها ألونة تنفتح على الصحن ، وتعلوها قبوات ضخمة نصف اسطوانية منكسرة ٠ وكانت بعض مدارس مصر تتألف من إيوانين متقابلين بينهما فناء ، ويرتبط الإيوانان معا عن طريق غرف متصلة ، ويعلو مدخل المدرسة عادة مئذنة ، مما يجعلنا نعتقد أن المدرسة المصرية تأثرت حتما بنظام المسجد (٤٣) ٠

وإن الإلمام بشىء من فن العمارة القوطية فى فرنسا - مثلا - فى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لأمر ضرورى لمن يريد أن يدرس ناحية من تاريخها فى ذلك الزمان ، فلقد قدم هذان القرنان نماذج رائعة من العمارة القوطية ، كان لها أثرها فى بناء المدارس والمعاهد والجامعات ، فمثلا تلك الكاتدرائيات العظيمة التى انبثقت فى كثير من الأنحاء ، ونشأت كثمرة لما سبقها من النمو التدريجى الروحى العقلى والفنى ، منذ العصر القديم حتى زمانها ٠ وقد تفانى الجميع ، أغنياء وفقراء ، ومن رجال دين وملوك وأمراء ورجال أعمال وأصحاب حرف وعمال ، فى بذل أموالهم وجهودهم المتنوعة جيلا بعد جيل ، فى صمت وصبر وجلد ودأب ، يحدوهم إيمان قوى ملحوظ (٤٤) ٠

والجمال على هذا المنوال ، بالنسبة لفنون المسرح والموسيقى وما يرتبط بها من غناء ورقص ، التى تعد كذلك من المزايا الصادقة التى تعكس أو تكشف عن كثير من الوقائع والحقائق الخاصة بعصور التاريخ ، والتى لا تكفى الكتابات التاريخية أو الوصفية أو الأدبية ، فى التعبير عنها ، كما نرى فى السمفونية الثالثة لبتهوفن " البطولة " التى تعد نقدا لطغيان الفرد لم يكن أحد يفهمه فى عهد طغيان نابليون على أوربا فى القرن التاسع عشر (٤٥)٠ وفى مصر هناك عشرات الأغانى والأناشيد

الوطنية التى تعكس أحداثا هامة فى ثورة يوليو ١٩٥٢ مثل : " الله أكبر " ، " والله زمان ياسلاحى " ٠٠ الخ ٠

٩ - علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) : ويؤكد كثيرون بما لا يمكن دحضه ، أن علم الإنسان أشد العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين ، وخاصة أن هذا العلم يعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى ، وانتشار البشرية على سطح الأرض ، ونشوء الثقافات الإنسانية ، وتتبع الحلقات السلالية فى سلسلة تاريخية متتالية من الظواهر المترابطة ، وكل ذلك يمد المؤرخ بأعظم فكرة مباشرة (٤٦) ٠

وقد اهتم بعض القدامى بالربط بين التاريخ والأنثروبولوجيا - بقصد أو بغير قصد - فقد حرص بوليوس قيصر أثناء كتابته لمذكراته أن يمدنا بمعلومات خاصة عن أجناس البشر التى رآها خلال تنقلاته فى فترة الحروب التى خاضها ٠ وقد تضمنت تلك المذكرات معلومات عن سلالات الغال والجرمان والبريطانيين ومعلومات عن ثقافاتهم وأوضاعهم ، وهو بذلك يكون قد مزج بالفعل بين التاريخ والأنثروبولوجيا (٤٧)٠ ونفس الشىء فعله ابن خلدون عندما تفرد بذكر وتاريخ الجالية الأندلسية وأخبارها وأوضاعها أثناء نزوحها إلى المغرب فى القرن السابع الهجرى - الثالث الميلادى ٠

١٠ - علم النميات أو النومات Numismatics : أى علم النقود والمسكوكات ، وهو علم من العلوم التى تساعد القائم بعملية بحث تاريخى ، ذلك لأن النقود تمثل العصور المختلفة التى ضربت فيها ، وهى أيضا تمثل الملوك والسلاطين والخلفاء والأمراء ومدى استغلال الإقليم أو تبعيته ، فقد تعتمد دولة على عملة البلد الذى يهيمن عليها ، كما أنها تعكس الحالة الاقتصادية للعصر الذى تنتمى إليه فقرا وغنى ، رخاء واستقرارا ، فقيمة العملة وما بها من ذهب أو فضة ، تمثل الجودة ، والعملة عندما تكون بها معادن خسيسة تمثل الرداءة ، خير دليل على اقتصاد العصر الذى تمثله (٤٨) ٠

هذا ومن النواحى المهمة لمن يرغب فى دراسة تاريخ التربية وكتابته ، أن يعرف صورة عامة ، على الأقل عن التاريخ العام ، ومن ثم فعليه أن يقرأ بعض مختارات من بعض كتابات المؤرخين القدامى منهم والمحدثين ، هذا فضلا عن أنه من الأمور

الأساسية لباحث تاريخ التربية ، ألا يلتزم بحدود بلده ، بل لابد له من كثرة السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، بقدر الإمكان ، فذلك يتيح له بصرا أبعد وعمقا أكثر فى التناول التاريخى ٠

وهكذا يكون المؤرخ التربوى ، مثل بقية زملائه المهمومين بالتأريخ فى حقوله المختلفة ، يجد نفسه غير معتقل فى تخصص ضيق لا يرى من العالم إلاه ، وإنما هو مطالب ، بحكم الضرورة البحثية العلمية ، أن يتسع أفق بحثه ، وتتعدد ألوان ثقافته ، فيتسع بصره وينفذ ٠

الهوامـش والمراجـــع

١ - أحمد كمال عاشور : بعض القضايا الجدلية فى المنهج المقارن ، مجلة دراسات تربوية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ج٥ ، م٢ ، ١٩٨٦ ، ص ١٣٧

٢ - المرجع السابق ، ص ١٣٨

٣ - قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠

٤ - المرجع السابق ، ص ٥١

٥ - حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٥

٦ -لانجلوا وسينوبوس وآخرون : النقد التاريخى ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، النهضة العربية ،١٩٧٠ ، ص ٥٢

٧ - عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميعى : منهج البحث التاريخى ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ،١٩٩٢ ، ص ٤٧

٨ - حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨ ، ص ٦٧

٩ - المرجع السابق ، ص ٦٨

١٠ - لانجلوا وسينوبوس : النقد التاريخى ، ٥٢

١١ - المرجع السابق ، ص ٥٩

١٢ - المرجع السابق ، ص ٦٠

١٣ - المرجع السابق ، ص ٦١

١٤ - شوقى الجمل : علم التاريخ ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٩٣

١٥ - حسان حلاق ، مرجع سابق ، ص ٧٨

١٦ - حسن عثمان ، مرجع سابق ، ص ٢٦

١٧ - حسان حلاق ، ص ٧٩

١٨ - حسن عثمان ، ص ٢٧

١٩ - حسان حلاق ، ص ٧٦

٢٠ – فتحية النبراوى ومحمد نصر مهنا : مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٤٤
٢١ – عبد العزيز صالح : دليل كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٥
٢٢ – عبد المنعم الجميعى ، مرجع سابق ، ص ٥٥
٢٣ – شوقى الجمل ، علم التاريخ ، ص ٨٦
٢٤ – المرجع السابق ، ٨٧
٢٥ – فيشر ، ا.ل ك تاريخ أوربا فى العصر الوسيط ، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٦٨
٢٦ – حسان حلاق ، ص ٩٤
٢٧ – مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، ٥٠
٢٨ – حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، ص ٣٠
٢٩ – قاسم السمرائى : مقدمة فى الوثائق الإسلامية ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨٣ ، ص٧-٨
٣٠ – عبد المنعم الجميعى ، ص ٥٤
٣١ – Vincent. J. M. : Aids to Historical Research . New York P.53
٣٢ – مقدمة (فجر الإسلام) لأحمد أمين ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥
٣٣ – محمد بيومى مهران : التاريخ والتأريخ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص ١٩٤
٣٤ – سعيد إسماعيل على : التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٠٤
٣٥ – محمد بيومى مهران : التاريخ والتأريخ ، ص ١٩٦
٣٦ – سعيد إسماعيل على : التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦، ص ٣٢
٣٧ – محمد بيومى مهران ، ص ١٩٨
٣٨ – على العتوم : قضايا الشعر الجاهلى ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص ١٤
٣٩ – شوقى الجمل : علم التاريخ ، ص ٨٨

٤٠ – المرجع السابق ، ص ٩٠

٤١ – حسن عثمان ، منهج البحث التاريخى ، ص ٤٠

٤٢ – أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١، المدخل ، ص ١١٨

٤٣ – سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٦، ص ٣٢٠

٤٤ – حسن عثمان ، ص ٤٢

٤٥ – المرجع السابق ، ص ٤٤

٤٦ – عبد المنعم الجميعى ، ص ٥٧

٤٧ – حسان حلاق ، ص ٩٩

٤٨ – مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، ص ٥٧